

الفصل الأول

حياة ابن الخطيب
وأراء بعض المستشرقين حوله

obeikandi.com

ابن الخطيب

713 - 776 هـ (1313 - 1374 م)

ثاني اثنين أرواحاً لعصر بنى الأحمر ، فكشفا عن السلالة النصرية ، حتى عصرهما الذي عاشاه جنباً الى جنب ، ولم ينل من علاقتهما الطيبة سوى التنازع على المزيد من السلطة ، فى دولة طالما استبد فيها الحجاب والوزراء ، وانتقصوا من سلطة السلطان ، فكانت نهايتهم على يدى من نازعوه أمور المملكة ، بايعاز من صاحب سلطة قضائية أو ادارية ، وهذا ما حدث بين ابن الخطيب ، وبين قاضى الجماعة أبى الحسن على النباهى الجذامى ، على نحو ما سنرى من خلال سيرة الأول .

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد ، بن عبد الله ، بن عبد الله ، بن سعيد ، بن على ، بن أحمد ، السلمانى ، نسبة الى سَلْمَان ، بقعة باليمن نزلت بها بعض القبائل القحطانية ، وكانت أسرة ابن الخطيب احدى هذه القبائل ، ومن اليمن وفدت الأسرة الى الأندلس ، حيث اتخذت قرطبة مقراً لها .

ثم هاجرت الأسرة الى طليطلة - كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه فى مقدمة « الاحاطة » - عام 202 هـ 817 م ، وهو العام الذى حدثت فيه ثورة أهل الربض بقرطبة ، ضد أمير الأندلس الحكم بن هشام ، حيث حرض الفقهاء أهل الربض ضد الأمير ، ولكن الحكم قضى على الثورة فى الموقعة المشهورة

١ (موقعة الربيض) وشنتت شمل القائمين بها ، فنفي من نفى ، وشرد من شرد ، وغادر قرطبة جمهور من المعارضين وعديد من العلماء ، ومن هؤلاء أسرة ابن الخطيب ، حيث قصدت طليطلة ، فبقيت بها قرابة قرن ونصف ، ولما أحسست أسرة المترجم له بالخطر المحدق بالمدينة - حيث أصبحت هدفاً للأسبان فى أواسط القرن الخامس الهجرى (أوائل القرن الثانى عشر الميلادى) - بادرت بالنزوح عنها الى مدينة لوشة (I) مسقط رأس ابن الخطيب فى 25 رجب 713 هـ (16 نوفمبر 1313 م) .

تربى ابن الخطيب فى أسرة عرفت بالاصالة والعلم والجاه ، فقد كان أبوه عبد الله من أكابر العلماء والخاصة ، كما أخبر بذلك ابن الخطيب نفسه ، حيث ترجم لأبيه فى كتابه (الاحاطة فى أخبار غرناطة) فروى لنا أنه ولد فى (672 هـ = 1273 م) واستقر حيناً فى غرناطة ، ثم عاد الى لوشة مقر الأسرة ، ثم رجع الى غرناطة أخيراً ، حيث التحق بخدمة السلطان أبى الوليد اسماعيل ملك غرناطة (713 - 725 هـ - 1314 - 1324 م) .

وقد كانت أسرته تحمل اسم « الوزير » الى أن جاء جده سعيد فعرفت باسم « الخطيب » .

ولما توفى هذا السلطان ، وخلفه ابنه السلطان أبو عبد الله محمد ، التحق والد ابن الخطيب بديوان كتابته أيضاً ، ثم بأخيه السلطان أبى الحجاج يوسف (733 - 755 هـ - 1333 - 1354 م) ، حيث عاصر الكاتب الكبير ، والرئيس العظيم أبا الحسن على بن الجيَّاب ، والذي مُنح من قبله لقب الوزارة ، وأخيراً سقط عبد الله مع ولده الأكبر - أخى لسان الدين - قتيلا فى موقعة طريف الشهيرة ، التى تمخضت عن فوز الأسبان على المسلمين من الأندلس والمغرب ، وسقوط كل من طريف ثم الجزيرة الخضراء وقلعة بنى سعيد ، وذلك فى جمادى الأولى 741 هـ (1340 م) .

(I) تعرف فى الاسبانية اليوم باسم « Loja » ، تقع على بعد 55 كم غرب غرناطة ، وهى احدى المدن الاسلامية الشهيرة أيام حكم العرب ، وقد استردها الأسبان قبل سقوط غرناطة بقليل (891 هـ = 1486 م) ، يقدر عدد سكانها حالياً بعشرين ألف نسمة تقريباً ، بينما كان عدد السكان - على عهد ابن الخطيب - يجاوزون هذا العدد بكثير كما يتضح من تاريخ المدينة يومئذ .

لقد نشأ ابن الخطيب في العاصمة غرناطة ، وتلقى بها دراسته (2) ، فقد كانت وقتئذ ميداناً احتشد فيه الأكابر من العلماء والأدباء ، فدرس اللغة والشريعة والأدب على جماعة من أقطاب العصر ، مثل « أبي عبد الله بن الفخار الألبيري » شيخ النحاة في عصره ، « وأبي عبد الله بن مرزوق » فقيه المغرب الكبير ، « والقاضي أبي البركات بن الحاج البليقي » ، ودرس الأدب والشعر على الوزير « أبي عبد الله ابن الحكيم اللخمي » وعلى الرئيس « أبي الحسن علي بن الجياب » ، وغير هؤلاء . كما درس الطب والفلسفة على حكيم العصر وفيلسوفه الشيخ « يحيى بن هذيل » . فلا نبالغ اذن اذا قلنا : ان غرناطة - في ذلك الوقت - كانت أعظم مركز للدراسات الأدبية والعلمية والاسلامية ، في هذا القطر الغربي من العالم الاسلامي ، وكان هذا من حظ ابن الخطيب الى حد بعيد .

هذا ، وقد تأثر مستقبل ابن الخطيب السياسي بحكم منصب والده ، فمنذ شب عن الطوق ونفسه تطمح للوصول الى مركز أبيه ، فلما توفي الوالد دعى ابنه للخدمة مكانه ، وكان حينئذ في الثامنة والعشرين من عمره ، حيث تولى امانة السر لأستاذه الرئيس « أبي الحسن بن الجياب » وزير السلطان ابي الحجاج يوسف الأول النصري وكاتبه (3) ، ثم خلف أستاذه في الوزارة ، وتقلد ديوان الانشاء لهذا السلطان ، وكان ابن الخطيب يومئذ قد ملك زمام أرفع الأساليب شعراً ونثراً ، بفضل أستاذه الراحل ، وظهر أثر هذه التلمذة على رسائله السلطانية ، التي حررها بقلمه على لسان ملوك الأندلس والمغرب ، والتي نعتها المؤرخ ابن خلدون بالغرائب ، وقد جمع ابن الخطيب نفسه منها الكثير في كتابه « ربحانة الكتاب ، ونجعة المنتخب » ، كما أورد المقرئ عددا منها في مؤلفه « نفع الطيب » (4) ، ويعتبر كتاب ابن الخطيب « كناسة الدكان بعد انتقال السكان » مجموعة من الرسائل السلطانية التي تمثل العلاقات السياسية بين غرناطة والمغرب ، في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، على لسان سلطانه يوسف الأول ابن الأحمر ، الى معاصره في فاس أبي عنان فارس المريني .

(2) العبر لابن خلدون ج 7 ص 332 .

(3) توفي ابن الجياب بوباء الطاعون الجارف ، في شوال 749 هـ (يناير 1349 م) .

(4) ج 3 ص 570 ، وما بعدها ، ج 4 في عدة مواضع منه .

ولقد كسب ابن الخطيب ثقة هذا السلطان الغرناطي ، حيث قربته من مجلسه ، وخلع عليه الجهم من النعم ، كما أنه أصبح أثيراً لديه ، مودعاً إياه أمانة سره وكتابته ، وذلك لروعة هذه المكاتبات السلطانية التي دبجها له من جهة ، ولنجاح سفاراته مع ملوك النصارى والمغرب من جهة أخرى ، فقد بعثه عاهل غرناطة سفيراً الى أبي الحسن المريني ملك المغرب عام 749 هـ (1348 م) .

ولما توفي السلطان أبو الحجاج يوسف قتيلاً - في يوم عيد الفطر 755 هـ (19 أكتوبر 1354 م) - خلفه في الملك ولده السلطان محمد الخامس الغني بالله ، واستمر ابن الخطيب في معاونته الوزير أبي النعيم رضوان على خدمة السلطان الجديد ، كما تولى الوصاية على الأبناء القصر للسلطان المتوفى ، ثم قام بسفارة الى السلطان « أبي عنان فارس المريني » عام 755 هـ = 1354 م ، ولقد نجح ابن الخطيب في مهمته هذه نجاحاً عظيماً ، ذلك أن ملك المغرب استجاب للمطالب التي حملها ابن الخطيب لصالح ملك غرناطة ، وفي مقدمتها العون الحربي لمقاومة أطماع ملك قشتالة .

ولقد ظفر ابن الخطيب بمكانة ممتازة لدى الغني بالله ، اذ منحه ثقته كإيابه من قبل ، وخلع عليه لقب (ذو الوزارتين) ، لجمعه بين وزارة القلم ووزارة السيف .

ولكن حدث أن اندلعت الثورة بغرناطة ، في رمضان 760 هـ = 1359 م ، ونتج عنها فقدان السلطان الغني بالله لملكه ، واستيلاء أخيه الأمير اسماعيل على العرش ، كما تمخضت هذه الثورة عن مقتل الحاجب أبي النعيم رضوان ، ثم فرار الغني بالله الى وادي آش (5) ، وعليه فأصبح ابن الخطيب لا يملك من الأمر شيئاً ، غير أنه حاول أن يستميل السلطان الجديد ، فقبله في منصب الوزارة مؤقتاً ، ثم تشكك بعد قليل في نواياه ، وذلك بتحريض منافسيه وحساده ، فقبض عليه ، وصادر أملاكه ، وبذلك فقد ابن الخطيب جاهه ونفوذه ، بل ومتاعه بين عشية وضحاها .

(5) راجع ما كتبناه عن هذه المدينة في وصف ابن الخطيب للمدن الأندلسية من هذا الكتاب .

لم تطل هذه النكبة بابن الخطيب ، فقد بعث ملك المغرب السلطان أبو سالم سفيره (الشريف أبا القاسم التلمساني) الى ملك غرناطة الجديد ، يطلب اليه أن يسمح للملك المخلوع (الغنى بالله) ووزيره ابن الخطيب بمغادرة الأندلس الى المغرب ضيفين عزيزين ، فرضخ سلطان غرناطة لهذا الطلب ، سياسة منه في الإبقاء على أوامر الوداد مع بني مرين ، واحتفاظاً بهم سنداً لمستقبل الدولة الإسلامية بالأندلس . ولهذا أطلق سراح ابن الخطيب ، ولحق بسلطانه ، حيث لجأ إلى وادي آش ، ومن ثم إلى المغرب ، ومعهما نفر كبير من الحاشية ، فوصل الركب فاس في محرم 760 هـ (ديسمبر 1358 م) حيث استقبلهما السلطان أبو سالم استقبالا حاراً ، واحتفل بقدمهم احتفالاً عظيماً ، وألقى ابن الخطيب في هذه المناسبة - بين يدي المضيف - قصيدته الشهيرة (6) ، يستنصره ويستصرخه ؛ ليعين سلطانه على أمره .

ويشهد ابن خلدون المؤرخ ذلك الحفل - بصفته من كبار رجال البلاط المريني - فيصفه لنا ويقول : « إن ابن الخطيب استولى على سامعيه ، فأبكاهم تائراً » .

هذا وقد طاب العيش لابن الخطيب بالمغرب في رعاية السلطان « أبي سالم » ، الذي أقطعه الأراضي ، ورتب له الرواتب ، حيث استقر في مدينة « سلا » (7) حوالي ثلاثة أعوام منفيًا 760 - 763 هـ (1358 - 1361 م) ، اقتنى خلالها الضياع والأموال ، ولكن لم ينس - في الوقت نفسه - نزعتة الثقافية والتأليفية ، فجاس خلال مدن المغرب دارساً باحثاً ، ملتقياً بالعلماء في تجواله ، وفي نهاية المطاف يرجع إلى سلا ، حيث يربط بضاحية « شالة » ، قرب أضرحة ملوك بني مرين .

(6) نفح الطيب للمقرى ج 3 ص 46 - 48 ، أزهار الرياض لنفس المؤلف ج 1 ص 197 - 200 وهي ثمانون بيتاً .

(7) سنعرف أيضاً بهذه المدينة من بعد في مناسبة وافية .

ولقد أصيب ابن الخطيب - إبان هذه الفترة - في زوجته أم أولاده ، وبالرغم من كل ما أصابه من نكبات متوالية فإنه لم يقعد عن التأليف ، ولم يخلد الى الراحة والسكينة ، ويكفى دليلا على هذا تلك المؤلفات التي حررها وقتئذ ، ومن أهمها :

- 1 (معيار الاختيار ، في ذكر المعاهد والديار (هذا الكتاب) .
- 2 (نفاضة الجراب ، وعلالة الاغتراب .
- 3 (اللوحة البدر . في تاريخ الدولة النصرية .
- 4 (الحل المرقوفة ، في اللمع المنظومة (8) .
- 5 (رقم الحل ، في نظم الدول .
- 6 (كناسة الدكان ، بعد انتقال السكان .
- 7 (رسائل في فنون مختلفة ، معظمها نظمه شعرا .

وفي هذه الأثناء تم انقلاب في فاس ، ترتب عليه مصرع السلطان أبي سالم ، في ذي القعدة 762 هـ (1360 م) ، وتقلد السلطان صاحب الانقلاب الوزير عمر بن عبد الله ، الذي أعان ابن الأحمر المخلوع على أمره ، ووقف الى جانبه في استرجاع عرشه ، حتى سنحت الفرصة ، ووات الظروف ، باندلاع ثورة جديدة في غرناطة ، صرع فيها السلطان اسماعيل بن الأحمر على يد الرئيس أبي سعيد ، الذي فر الى (قشتالة) عقب عودة الغنى بالله الى الأندلس ، واستيلائه على ولاية مالقة ، ثم دخوله غرناطة ، وتربعه على العرش من جديد عام 763 هـ = 1361 م .

لقد استدعى سلطان غرناطة الجديد ، محمد الخامس الغنسى بالله ، وزيره المنفى ابن الخطيب ، ليقدم الى دار ملكه ، برسالة مؤرخة : 14 جمادى الآخرة 763 هـ (15 أبريل 1361 م) وليتقلد منصبه السابق ، فاستجاب ابن

8) هذا الكتاب يتحدث فيه ابن الخطيب عن تاريخ الدولة الإسلامية ، وقد أهداه الى السلطان أبي سالم المريني ملك المغرب ، فكافاه عليه بمضاعفة رواتبه ، كما كتب - في شأن المؤلف - الى سلطان غرناطة ، يطلب منه الافراج عن ممتلكات ابن الخطيب المصادرة .

الخطيب ، وجاز البحر صحبة أسرة السلطان وأسرته ، ثم وصل العاصمة ، وهناك وجد من يزاحمه منصبه ، وينافسه السلطة ، وهو شيخ الغزاة (عثمان بن أبى يحيى) ، صاحب اليد على السلطان فى استرجاع العرش ، فنشب خلاف بين الرجلين ، وحقد كلاهما على الآخر ، ولكن ابن الخطيب كان أشد مراساً بأساليب الكيد والدس ، فتغلب على خصمه ؛ اذ زين للسلطان خطورة نفوذ عثمان هذا ، وبدأ يخيفه من غدره وغدر أشياعه ، فاستجاب ابن الأحمر لنصح ابن الخطيب ، وقضى على عثمان وآله فى شهر رمضان 764 هـ = 1363 م ، وبذلك استرد ابن الخطيب كامل سلطته ، دون مناوىء أو منافس ، ولكن الى حين ، فقد شعر مرة أخرى بما يحاك حوله من دسائس ومكائد ، ورأى سلطانه يتأثر بسعاية الخصوم ، وقد تزعم هذه الحملة الجديدة ضد ابن الخطيب رجلان وثيقا الصلة بالسلطان بحكم وضعيتهما فى الخدمة السلطانية ، ولمكانتهما السياسية فى الدولة ، وهما :

I (الشاعر محمد بن يوسف المعروف بـ « ابن زمرك » تلميذ ابن الخطيب ، ومعاونه فى الوزارة .

2 (قاضى الجماعة أبو الحسن على بن عبد الله النباهى ، ولى نعمة ابن الخطيب .

وحيث أن شعر ابن الخطيب بخطورة موقفه عند السلطان ، بين هذين الرجلين الداهيتين ، فدبر أمره على مغادرة الأندلس نهائياً ، دون أن يشعر السلطان مطلقاً بذلك ، وفعل طلب منه أن يأذن له فى تفقد بعض الثغور والموانئ الأندلسية ، فأجابه السلطان ، وكان وزيرنا - من جانبه - قد أعد العدة للإبجار الى المغرب ، حيث يحل ضيفاً لاجئاً على السلطان أبى عنان فارس بن أبى الحسن المرينى ، وقد تم له ذلك بوصوله الى جبل طارق ، الذى كان يومئذ ضمن أملاك المرينيين ، ونجحت الخطة ، اذ استقبله قائد الميناء بحفاوة ، وسهل له مهمته ، بأمر من سلطان المغرب ، وأجازه الى سبتة هو ومن معه من ولده ، وقبل أن يودع هذه البقاع بعث برسالة مؤثرة الى السلطان الغنى بالله

يعمل فيها مسلكه هذا ، ويبرر تصرفه الاضطرابي ، وأخيراً يطلب غفرانه ، راجياً عونه لأسرته التي خلفها وراءه في غرناطة .

وصل ابن الخطيب الى سبتة ومنها التحق بتلمسان ، مقر السلطان عبد العزيز الذي احتفى به وأكرمه ، ثم بعث بسفرائه الى غرناطة ، يلتمس من سلطاتها ان يجيز أسرة ابن الخطيب ، فأجابه ابن الأحمر الى طلبه ، وكان ذلك عام 773 هـ = 1371 م .

وكان من المتوقع أن يهناً ابن الخطيب بهذا المقام بالمغرب ، فالسلطان قد أحله مكانته اللائقة به ، وأبدله مما فقد الشيء الكثير ، ولكن - للأسف - اتخذ منافسوه بغرناطة من هربه - على هذه الصورة - مادة دسمة للكيـد ، وأكدوا للسلطان محمد الخامس ابن الأحمر ادانته ، وعدم وفائه لولى نعمته ، وزاد الاتهام تأكيداً أن ابن الخطيب كان حريصاً على أن يحمل معه أمواله وذخائره الى المغرب ، وفي هذا يخاطب القاضي النباهي غريمه - في الرسالة المعروفة التي بعث بها اليه : « فهمزتم ولمزتم ، وجمعتم من المال ما جمعتم . . . ، ثم هربتم بأثقالكم » (9) .

كان القاضي النباهي فيما سبق من أنصار الوزير ابن الخطيب ، بل إن تعيينه قاضياً للجماعة واستصدار ظهير هذا المنصب قد تم على يدي ابن الخطيب نفسه ، كما نجد في كتاب الاحاطة ترجمة للنباهي تنبئ عن تقدير ابن الخطيب لهذا الرجل ؛ اذ ينعتة بأنه « قريع بيت مجادة وجلالة ، وبقية تعين وأصالة ، عف النشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، بعيد الغور ، مرهف الجوانب » . ناظم ، ناثر ، نشره يشف عن نظمه ، ذاكر للكثير ، بعيد المدى في باب النزاهة ، ماضي غير هيو ب . . . الخ » ، ولكن ذلك « النباهي » تنكر تماماً لابن الخطيب ، ولم يحفظ له هذا الجميل ؛ فقد أزر الوزير « ابن زمرك » ضده ، وسعى سعياً حثيثاً في سبيل القضاء عليه ، وتجلى هذه الروح الشريرة ، وما يمليه الحقد الشخصي ، والضغائن الدفينة ، في تلك

(9) المقرئ في « نفح الطيب » ج 7 ص 56 .

الرسالة التى بعث بها القاضى النباهى الى ابن الخطيب بالمغرب ، وفيها يعيب عليه الانصراف الى اقتناء الضياع والديار ، كما أنه نسب اليه - فى بعض مؤلفاته - بعض محدثات فى الدين ، مما يمس الشريعة الاسلامية ، كما تناول فى بعض هذه المؤلفات الاموات من الناس ، وذلك بالطعن أو العيب فيهم ، الامر الذى يستنكره الدين ، الى آخر ما جاء فى تلك الرسالة من هذه المثالب ، وحتى مغادرة ابن الخطيب للأندلس مؤخراً - على تلك الصورة - رأى فيها النباهى غدراً بالسلطان ولى نعمته ، كما كذبه فى ادعائه الانقطاع للعبادة فى المغرب ، وأنه لو أرادها حقيقة لقصد الديار المقدسة ، أو أبقى على نفسه بغرناطة بجوار الكفاح والجهاد ، لنصرة المملكة الاسلامية التى يتهددها خطر الاسبان كل حين .

وفى الاخير ينهى النباهى رسالته بالنيل من أسرة ابن الخطيب ، بأنها حديثه النعمة ، وأن ثروتها هذه لم تأت الا عن طريق المنصب والسلطة . .

وقد كان لهذه الرسالة اثر كبير فيما بعد ؛ حيث كانت صك الاتهام ، وأدين ابن الخطيب على أساس ما ورد فيها ، وذلك عندما حلت نكبته ، ودنت ساعة نحسه (IO) .

هذا ، ويرجع تاريخ الرسالة هذه الى اواخر جمادى الاولى 773 هـ = 1371 م ، وقد تسلمها ابن الخطيب بتلمسان ، وأجاب على ما جاء بها مفصلاً ، فى كتابه « الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة » ، وشدد النكير على القاضى النباهى ، عندما وصقه بأنه « الجعسوس » أى : القزم الدميم ، وزاد ابن الخطيب فوضع رسالة خاصة للنيل من خصمه اللدود ، وسماها « خلع الرسن » ، فى وصف القاضى أبى الحسن .

ظل القاضى النباهى وابن زمرك على عزمهما بسحق غريمهما ابن الخطيب ، فبعد احراق كتبه العقائدية ، عهد النباهى الى قضاة غرناطة باستصدار حكم الشرع فى جريمة الالحاد ، وهو الاعدام ، وحصل من السلطان على مصادقة بهذا

(IO) المرقى فى « ازهار الرياض » ج 1 ص 212 - 224 ، حيث اورد المؤلف الرسالة كاملة.

الحكم ، وبعث القاضي أبو الحسن بنوابه الى السلطان عبد العزيز وبأيديهم هذا الحكم ، فقابل السلطان رسل غرناطة بالاستنكار ، وخاطبهم قائلا : « هلا أنفذتم فيه حكم الشرع وهو عندكم ، وأنتم عالمون بما كان عليه !!! » وبالغ في اكرام ابن الخطيب ، وأضفى عليه مزيداً من عنايته .

وتجدر الإشارة هنا الى أن ابن الخطيب قد لاحظ وقتئذ قوة المغرب في عهد صديقه السلطان عبد العزيز ، ومبلغ العداء بين فاس وغرناطة وقد بلغ أوجه ، فحرض السلطان على ضم غرناطة لمملكته ، وقد رمى من وراء ذلك الى سحق أعدائه هناك ، وتأمين مقامه بالمغرب ، وما يتبع ذلك من حماية مصالحه .

ويظهر أن هذه السياسة قد لاقت قبولا عند السلطان عبد العزيز ، فصمم على تنفيذها ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « ثم تأكدت العداوة بينه (ابن الخطيب) وبين ابن الأحمر ، فرغب السلطان عبد العزيز في ملك الأندلس وحمله عليه ، وتواعدوا لذلك عند رجوعه من تلمسان الى المغرب (II) » ، وبلغت ابن الأحمر رغبة ملك المغرب هذه ، فتخوف لذلك كثيراً ، وأسرع الى إيقاد رسله بالهدايا والتحف الثمينة الى بلاط فاس ، آملاً في نيل رضا السلطان عبد العزيز ، واتقاء شره . ثم تفاجئ الظروف الموقف ، فيموت السلطان عبد العزيز بعدئذ بقليل ، ويجلس على عرش المغرب ابنه « أبو زيان محمد السعيد » طفلاً في الرابعة من عمره ، في ربيع الآخر 774 = 1372 م ، وقبض على زمام السلطة الفعلية وزيره « أبو بكر بن غازي » ، فتغيرت الأوضاع السياسية بالمغرب تماماً ، واضطر ابن الخطيب حينئذ أن يتزلف الى الملك الطفل ووزيره ، فألف كتابه المعروف باسم « أعمال الأعلام » ، فيمن بويح قبل الاحتلال من ملوك الاسلام » ، وفيه يبرر هذا الوضع الجديد شرعاً ، وعرفاً وتاريخاً ، وأورد لذلك الأشباه والنظائر ، رداً على المناهضين بالمغرب ، وخاصة بنى الأحمر وعملائهم .

(II) ابن خلدون في « العبر » ج 7 ص 338 - 341 .

وفى هذه الأثناء قام السلطان ابن الأحمر بمحاولة أخرى للإيقاع بابن الخطيب ، وذلك بأن أوعز الى الوزير « ابن غازى » أن يبعث اليه بابن الخطيب ، فامتنع ابن غازى ، وتوترت العلاقات مرة أخرى ، بين غرناطة وفاس ، الأمر الذى جعل ابن الأحمر يوغر صدور هؤلاء الأمراء المرينيين ضد النظام القائم فى فاس . وبذل فى سبيل القضاء على هذا النظام مساعدات ضخمة ، كما أقنع من اتصل بهم من حكام الأقاليم - وخاصة حاكم سبتة أبا محمد بن عثمان - بأن من الأفضل للمغرب أن يكون الملك رجلاً راشداً ، لا طفلاً صغيراً ، لا يدرك شيئاً ، واتفق معه على تنصيب الأمير المرينى أبى العباس أحمد بن أبى سالم ملكاً على المغرب ، وأنه - أى محمد بن عثمان - سيكون الوزير مستقبلاً ، وأعطاه المزيد من المساعدات الهائلة لتنفيذ هذا الاتفاق ، على أن يحقق هذا الوزير لابن الأحمر ثلاثة مطالب ، بعد نجاح الخطة ، وهى :

1 (تسليم ابن الخطيب .

2 (تسليم الأمراء المناهضين لابن الأحمر .

3 (تسليم جبل طارق .

ووقعت بعض الحوادث بالمغرب ، وتمخضت عنها ثورة قاضية ، أدت الى حدوث الانقلاب المنشود لابن الأحمر ، ونودى حينئذ بالأمير أحمد بن السلطان أبى سالم والياً على المغرب (776 هـ = 1374 م) .

وهنا أسرع السلطان الجديد بالقبض على ابن الخطيب ، وسجنه ، وبذلك تهيأت الفرصة لوضع نهاية الوزير المنكود ؛ فقد كان الوزير الجديد ببلاط فاس سليمان بن داود من ألد خصوم ابن الخطيب ، ومن جهة أخرى فقد أرسل سلطان غرناطة سفيره ووزيره عبد الله بن زمرك الى فاس ليشهد آخر فصل فى هذه الرواية ، وليدق آخر مسمار فى نعش ابن الخطيب ، وبوصول ابن زمرك عقد السلطان أحمد مجلساً من مستشاريه وكبار رجال الدولة ، ونوقش ابن الخطيب أمام هذا المجلس ، حول كافة الادعاءات المقامة ضده ، وبالأخص دعوى الإلحاد ، تلك الدعوى التى صاغها القاضى النباهى من قبل ، وكان مجلساً

صورياً بطبيعة الحال ؛ فان نتيجة المحاكمة كانت مقررة ، ومتفقاً عليها من قبل ،
فى كل من غرناطة وفاس .

لقد أودى ابن الخطيب امام شهود هذه المؤامرة ، وافتى الفقهاء
المتعصبون بإعدامه شرعاً ، فأعيد الى سجنه حيث دبر الوزير سليمان بن داود
أمر قتله فى السجن ، وفلا بعث اليه ببعض الأشرار الذين قتلوه خنقاً أواخر
عام 776 هـ = 1375 م ، وفى الصباح سحبت جثته الى الفضاء ، حيث تم حرقها ،
ودفن بضاحية فاس (I2) .

ويروى المقرئ أنه تمكن مؤخراً من معرفة قبر ابن الخطيب ، وذلك
خلال اقامته بفاس ، أوائل القرن الحادى عشر الهجرى (القرن السابع عشر
الميلادى) ، فزاره مراراً حيث يرقد ، وفى هذا يقول : « وقد زرتة مراراً - رحمه
الله تعالى - بفاس المحروسة ، فوق باب المدينة الذى يقال له : باب الشريعة ،
وهو يسمى الآن « باب المحروق » ، وشاهدت موضع دفنه غير مستو مع الأرض ،
بل ينزل اليه بانحدار كثير (I3) » .

رحم الله ابن الخطيب كفاء ما زود التاريخ من ذخائر ، وأهدى العلوم
والمعارف من نفائس .

(I2) ابن خلدون « المعبر » ، ج 7 ص 341 - 342 .

(I3) المقرئ « نفع الطبيب » ، ج 7 ص 83 .

ابن الخطيب في نظر بعض المؤرخين والمستشرقين

قضى الوزير الفذ ، والمفكر العظيم ، والمؤرخ الكبير ، والموسوعة العلمية ، على هذا النحو ، ضحية الأحقاد والأضغان ، وبالرغم مما أثير حول الرجل إبان محنته من موجة عارمة بالسخط ، فان هذه الموجة لم يطل أمدها ، اذ كانت مغرضة عارية من ثوب الحقيقة ، يدل على هذا ما رأيناه من المؤرخين القدامى ، الذين انبرت أقلامهم لانصافه ، واحلاله المكانة اللائقة به بين رجال التاريخ . ونخص من المؤرخين أولئك الذين قربوا من عهده ؛ فابن خلدون صديقه القديم يسجل أولاً أنه « هو الهالك لهذا العهد ، شهيداً بسعاية أعدائه (14) ، » ثم يورد - في مقام آخر - أنه « شاعر الأندلس والمغرب في عصره » ، كما يشهد له في ميدان الشعر والنثر بقوله : « وامتلاً حوض السلطان من نظمه ونثره ، مع انتقاء الجيد منه ، وبلغ في الشعر والترسل ، حيث لا يجارى فيهما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بنى الأحمر ، وملأ الدولة بمدايحه ، وانتشرت في الآفاق قدماء » ، ويتحدث ابن خلدون كذلك عن رسائل ابن الخطيب السلطانية بقوله : « وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكاتبة جيرانهم (ملوك بنى الأحمر) من ملوك العدو » .

وحقا لقد خلف ابن الخطيب من هذه الرسائل روائع ، تعد نموذجاً رفيعاً ، لما بلغه قلم الرجل من شأو في فن النشر الوزاري السياسي خاصة ،

(14) المقرئ « ازهار الرياض » ج 1 ص 191 .

سواء - من هذه الرسائل - ما بعث به على لسان سلطانه الى ملوك المغرب
أو ملوك النصارى ، أو سلاطين مصر ؛ فبين أيدينا الكثير الجم ، ويعتبر كتابه
« ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » مجلداً ضخماً لألوان نثر ابن الخطيب المختلفة ،
ما بين أغراض سلطانية ، الى رسائل اخوانية ، الى أوصاف حربية لمعارك
دارت رحاها على أيامه .

أما المقرئ فقد جمع فى مؤلفه « نفح الطيب » معظم آثار ابن الخطيب .
وما كان له من أخبار فى الفترة التى عاشها بالأندلس والمغرب ، ويكاد يكون
معظم هذا السفر الضخم وقفاً على ابن الخطيب ، حتى أنه قرن اسم الكتاب به .
وقد أشاد المقرئ فى أكثر من موضع - من كتابه هذا - بوزيرنا ،
فيقول عنه مثلاً : « اذ هو فارس النظم والنثر فى ذلك العصر ، والمنفرد بالسبق
فى تلك الميادين بأداة الحصر (15) » .

وفى مجال العلوم والآداب بألوانها هو « امام هذه الفنون ، المحقق
لذوى الآمال والظنون ، المستخرج من بحار البلاغة درها المكنون ، وله اليد
الطولى فى العلوم على اختلاف أجناسها ، والألفاظ الرائعة التى تزيح وحشة
الأنفس بايناسها (16) » .

وبالجملة ، فالمقرئ يرى أن ابن الخطيب « قد قصرت السن البلقاء
عن علاه ، وزانت صدور الدواوين حلاه ، وجمع خلاصا حسانا ، وكان للدين
لسانا (17) » .

أما الأمير « أبو الوليد اسماعيل ابن الأحمر » ، معاصر ابن الخطيب ،
فيسجل فى كتابه « نثر فرائد الجمان » ، فيمن ضمنى وياهم الزمان « مواهب

15 « المصدر السابق ج 1 ص 77 .

16 المقرئ « نفح الطيب » ج 1 ص 110 .

17 المقرئ « نفح الطيب » ج 1 ص 111 .

هذا الوزير وعبقرياته ، فيقول : « هو شاعر الدنيا ، وعلم الفرد والثنيا ، وكاتب العَرَض الى يوم العَرَض ، لا يُدافع مدحه فى الكتب ، ولا يُجَنح فيه الى العتب ، آخر من تقدم فى الماضى ، وسيف مقولة ليس بالكهام ؛ اذ هو الماضى ، والا فانظر كلام الكتاب الأول من العُصْبَة ، كيف كان فيهم بالافادة صاحب القصبة ، للبراعة ، بالبراعة ، وبه أسكت صائلهم ، وما حمدت بكرهم وأصائلهم ، المشربة بالحلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العدوتين ، ورئيس الدولتين ، بالاطلاع على العلوم العقلية ، والامتع بالفهوم العقلية (18) » .

كذلك يبدى النقاد الأجانب اعجابهم وتقديرهم لابن الخطيب ، وينوّهون فى كثير من المناسبات بمنزلة الرجل العلمية والأدبية ، وما زالت آثاره محل دراستهم المستفيضة ، معينا لا يغيض ، ومنهلا بالمعارف يفيض .

وفى طليعة هؤلاء النقاد الأجانب المستشرق الأسباني (سيمونيت Simonet) حيث يقول : « ان ابن الخطيب قد خلف لنا آثاراً كثيرة ، فى النثر والشعر ، والتاريخ ، والجغرافيا ، والرحلات ، والبلاغة ، والشريعة ، والعلوم ، والأخلاق ، والدين ، والنبات ، والطب والبيطرة ، والموسيقى ، والفن الحربى ، والسياسة ، وكلها غنية فى الابتكار والتعمق والرشاقة (19) » .

وبهذه المناسبة نذكر أن المستشرق « سيمونيت » تناول بالتحقيق والترجمة المدن الأندلسية التى وصفها ابن الخطيب فى كتابه « معيار الاختيار ، فى ذكر المعاهد والديار » موضوع هذا الكتاب — كما أسلفنا فى المقدمة — على نحو ما سنفصل القول عنه فى الباب الثالث ، عند حديثنا عن قيمة مؤلفه هذا من الناحيتين التاريخية والأدبية .

18 المرقى « أزهار الرياض ، فى أخبار القاضى عياض » ج 1 ص 191 .

F. J. Simonet, Descripcion Del Rieno de Granada, Sacada Del Los Autores Árabigos. 19

هذا ، ويكفي في هذا العرض الموجز للتعريف بابن الخطيب أن
نقتصر على آراء هؤلاء المؤرخين وبعض المستشرقين كشهادة صادقة للرجل الذي
دخل دخل التاريخ من أوسع أبوابه ، وإن هذه الشهادة من أمثال هؤلاء لفي غنى
منا عن التعليق ، فقد استقاها أصحابها من واقع مؤلفاته العديدة ، أبلغ حجة ،
وأوضح بيان ، وأقوى برهان ، على مدى ما بلغه ابن الخطيب من شهرة سمت
إلى الأوج ، لما تمتع به من عقلية فذة ذات آراء نافذة .

